

# المفارقة التصويرية في القرآن الكريم

إعداد

أ.د. سليمان بن صالح القرعاوي

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المشارك

بقسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

جامعة الملك فيصل - الأحساء

المملكة العربية السعودية

## المقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه،  
وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فإن العقل الإنساني أعظم هبات الله - تعالى - للإنسان، وقد اقترن العقل بالنظر  
والتمييز بن الحق والباطل، والصحيح والزائف، والخير والشر... يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي  
ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾<sup>(١)</sup>.

وقد اقترن النظر العقلي بقوانين ومسلمات، ومن هذه القوانين العقلية الأولية ما يسميه  
علماء الكلام: "قانون التمانع"، ومعناه: "امتناع اجتماع الضدين".

وتتبدى الأضداد في صور شتى سواء في السلوك، أو المواقف من قضايا الوجود  
والمجتمع، فوجود الخالق ووحدانيته، وحكمته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه أن يُعبد، وأن  
يُوحَد، وأن يَنْزَهَ، وألا يُشْرِكَ به، وألا يُجْحَدَ نعمه، كلها قضايا تتصل بالعقل، والنظر، والتعلم،  
يقول الله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>، والإيمان بقدرة  
الله، وبأنه خالق كل شيء، وأنه القادر على الإيجاد والإفناء، وعلى الموت والبعث، كلها  
قضايا تتصل بالعقل، والنظر، والعلم ...

والمفارقة التي تتمثل في إظهار التناقضات، بين ما يجب أن يكون، وما هو موجود  
بالفعل، طريق من طرق البرهان، والاحتجاج النظري في القرآن الكريم.

"والقرآن قد ضُرب للناس فيه من كل مثل، وهي المقاييس العقلية المفيدة للمطالب  
الدينية، لكن القرآن يبين الحق في الحكم والدليل، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟، وما كان من  
المقدمات معلومة ضرورية، متفقاً عليها، استدلل بها، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها"<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة الرعد، الآية ٤ .

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٤٣ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ص ٨٥ .

ولا شك أن التناقض الذي تشير إليه بعض الآيات القرآنية في سلوك بعض الناس، يقوم إنكاره على أساس عقلي، يمثل الفطرة التي فطر الله عليها بني الإنسان، وما زوده به من قدرة على النظر، والتأمل، وإدراك الحقائق، يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ (١).

وبقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ (٢).

إن المفارقة تتمثل في أن هناك من الناس من عميت بصائرهم، وطُمس على أبصارهم، وضلت عقولهم، وأصبحوا ينظرون فلا يرون الحق حقاً، ولا الباطل باطلاً... وكأنما سلبت أدوات العقل والنظر قدرتها على التمييز، وسلبت الأنفس قدرتها على اختيار الصحيح من الأفعال والأقوال.

فالأدلة كثيرة قاطعة على وجود الخالق، الذي خلق الوجود جميعه، وأوجده من العدم، لكن هذه الأدلة لا تقود كثيراً من الناس إلى الإيمان بالخالق، وبأنه مُوجدٌ هذا الوجود. وإذا سلم بعض الناس بأن الله خالقهم ورازقهم؛ فإن ذلك لا يتبعه شكر على نعمة الخلق ونعمته.

فالمنطق يرينا أن واهب النعم لا بد أن يكون أحب إلينا من النعم نفسها، لكن أكثر الناس تشغلهم النعم، وتصرفهم عن واهب النعم.

وإذا آمن الناس بأن الرسول بشر مثلهم، فإن ذلك لا يقود بعضهم إلى أن البشر لا يفعلون إلا ما يسره له خالقه، وأنه مِيتٌ مثلما أنهم ميتون، وبعض الأمم قد تصرفوا من أنبيائهم تصرفاً يتناقض مع العقل من ناحية، ومع تسليم بعضهم بنبوتهم من ناحية أخرى.

وقد كشف القرآن الكريم عن كثير من مثل هذه المفارقات، وتتلخص المفارقات في التناقض، بين ما يجب أن يكون، وما هو كائن بالفعل، وفي القرآن الكريم تصوير لمواقف كثيرة

(١) سورة يوسف، الآية ١٠٩.

(٢) سورة الحج، الآية ٤٦.

تتضمن أنماطاً من التناقض في السلوك البشري، ونماذج من العناد والصلف الإنساني، وقد عرضتُ لهذه المواقف ودرستها، في إطار ما أطلقت عليه: "المفارقة التصويرية في القرآن الكريم"، وهو ما سأحاول عرضه وبيانه.

وقد قسّمت البحث إلى مقدمة، ومدخل، وفصلين، وخاتمة كما يلي:

المقدمة: عن أهمية المفارقة، والهدف من الكتابة فيها.

مدخل: وفيه البيان عن مفهوم المفارقة.

## المدخل:

جاء في المصباح عن المفارقة: فرقت بين الشيء فرقاً، من باب، فَقَلَّ يَقُفُّ: فصلت أبعاضه، فرقت بين الحق والباطل: فصلت أيضاً، بهذا قرأ السبعة، في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾. (١) وفي لغة من باب ضَرَبَ يَضْرِبُ، وقرأ بعض التابعين. (٢)

وقال الأصفهاني: الفرق يقارب الفلق، لكن الفلق، يقال باعتبار الانشقاق، والفرق يقال باعتبار الانفصال، ثم الفرق بين الشيئين، سواء كان بما يدركه البصر، أم بما تدركه البصيرة.

والفرقان أبلغ من الفرق؛ لأنه يُستعمل في الفرق بين الحق والباطل، الحجة والشبهة ... والفرق: ما فرّق بين الشيئين.

والمفرق من الطرق: الموضع الذي يتشعب منه طريق آخر، والجمع مفارق، ومفارق الحديث: وجوهه.

والفرقان: القرآن، يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام.

والفرقة: مصدر الافتراق.

وفارق الشيء مفارقة: باينه، والاسم: الفرقة. (٣)

والبين: الفراق، وبان: فرق، والمباينة: المفارقة. (٤)

---

(١) سورة المائدة، الآية ٢٥.

(٢) المصباح المنير، مادة فرق.

(٣) لسان العرب لابن منظور، مادة فرق، وتاج العروس للزبيدي، مادة فرق.

(٤) المصباح المنير، مادة بون.

والتفريق فصلُ الشيء عن بعضه، أو فصل شيء عن شيء، أو فصل معنى عن معنى،  
ففيه معنى الفصل، والتفصيل، والتبيين، فصلته عن غيره فصلاً: قطعته، فانفصل، وفصلت  
الشيء تفصيلاً: جعلته فصولاً. (١)

والفصل: إبانة أحد الشيئين من الآخر؛ حتى يكون بينهما فُرجة، ويستعمل ذلك في  
الأفعال والأقوال، نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (٢) أي: يبين الحق من  
الباطل، ويفصل بين الناس. (٣)

ومما سبق يمكننا أن نكشف عما يتصل بالمفارقة من الدلالات، فالمفارقة مباينة، والمباينة  
فصل، وفي الفصل تفصيل، والمفارقة مفاعلة، وهي تفصل ما بين شيئين، أو حدثين، أو  
قضيتين: من فروق، وتضاد، وتناقض، والضد: مثل الشيء، والضد خلافه، وضاده مضادة،  
إذا باينه مخالفة، والمتضادان اللذان لا يجتمعان، كالليل والنهار. (٤)

ونقض: تناقض الكلامان: تدافعا، كأن كل واحد نقض الآخر (هدمه)، وفي كلامه  
تناقض: إذا كان بعضه يقتضي إبطال بعض، والمفارقة تتصل بموقف ذي بعدين بينهما تضاد  
وتناقض، وتباين وتفارق، واختلاف، بحيث إنه ما كان ينبغي أن يكون أحدهما بسبب وجود  
الآخر، فلما اجتمعا كان الكلام عنهما متضمناً نوعاً من الإنكار أو التوبيخ، أو التهكم أو  
التحقير، والاستصغار، أو الاستبعاد أو التعجب، ويكشف عن ضعف في آلة العقل، عند  
هؤلاء الذين فارقهم الفهم الصحيح، ومن ثم فارقهم الصواب.

ودراسة المفارقة: تعني الكشف عن تلك المواقف التي تتضمن تناقضاً وتضاداً، وتبايناً  
بين عناصرها، ويتطلب ذلك تعرفاً على تلك المواقف التي تتضمن مفارقة، وتحليل عناصر

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سورة الدخان، الآية ٤٠.

(٣) المفردات للراغب الأصفهاني ص ٤٠١.

(٤) المصباح المنير، مادة ضد.

الموقف، والكشف عن علاقة ذلك بالنص أو المقام أو السياق الذي تضمن مفارقة. وهو أمر  
اقتضى أن ندرسه في فصلين كما سيأتي.

## الفصل الأول

### موقف المكابرين من وجود الله تعالى وقدرته ونعمه

قرر القرآن الكريم أن الإيمان بالله، أمر تقتضيه الفطرة الإنسانية، يقول سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِيَّ اللَّهِ شَكُّ فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾. (١)

وقوله - سبحانه وتعالى - : ﴿وَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾. (٢)

وهذا دليل على أن الإيمان بوجود الله تعالى أمر ضروري لا مناص منه، وحاصله أن شيئاً من الأشياء، لا يمكن أن يخرج من العدم إلى الوجود بدون موجد، كما لا يمكن أن يكون الشيء خالقاً لنفسه، أو يكون المفعول فاعلاً لذاته، فالمعاندا يزعم خلاف ذلك، ويناقض نفسه بنفسه، حين يدعي أن هذه الموجودات التي خلقها سبحانه إنما أوجدتها الطبيعة، ونسي نفسه. وفي هذا تناقض مع أبسط قوانين العقل التي فطر عليها الإنسان.

والقرآن الكريم بهذا يخاطب الفطرة الإنسانية السليمة، ويلفت الأنظار في أسلوب رائع إلى الآيات البينات، والأدلة الواضحة التي تتصل بالفطرة السليمة، والتي توجب على كل ذي عقل أن يؤمن بالخالق - جلّ وعلا - وهذه الآيات منها ما يتصل بالإنسان، ومنها ما يتصل بظواهر الكون، وتسمى (آيات الأنفس والآفاق)، يقول سبحانه:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ

(١) سورة إبراهيم، الآية ١٠.

(٢) سورة الطور، الآيتان ٢٥، ٢٦.



عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿١﴾ .  
ويقول تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾. (٢)

والحقيقة أن كثيراً من الآيات القرآنية تتحدث عن وجود الله تعالى بالأدلة القاطعة الساطعة، ولو قرأها الإنسان قراءة متأنية لشهدت كل شعرة منه بوجود الله تعالى، إنها تقدم آيات بينات، وبراهين ساطعات، لا يستطيع صاحب الفطرة السليمة والعقل القويم أن يتجاوزها دون أن يقرَّ بقدرة الله، ولطفه، وحكمته.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (٣).

وقد حاجَّ إبراهيم ربه في قضية الخلق، يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ إلى قوله ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. (٤)

ولكن الذين طمست بصائرهم وعميت عقولهم أنكروا هذه الحقيقة، ونسبوا كل شيء موجود بفعل الظواهر الكونية، أو بداعي المشاركة مع الخالق، وقد ساق القرآن الكريم هذه المزاعم بأسلوب يسميه البلاغيون (الاحتجاج النظري)، وهو: ذكر الشيء مع الحجة عليه. وكثيراً ما يقترن ذلك بأنماط من الإنكار، والتعجب، والتوبيخ. كما يقترن الرد على منكري الحقائق الربانية بأسلوب المفارقة الذي يكشف عن زيف الحجج، وبطلان ما يدعون، ويتمثل ذلك في إبراز التناقض. وسنتعرض في هذا الفصل إلى البراهين الدالة على وجود الله، ووجوب الإيمان به، وفي مقابلتها: الإنكار، والكفر من المعاندين والمكابرين.

(١) سورة فصلت، الآيات ٥٢ - ٥٤ .

(٢) سورة الذاريات، الآيات ٢٠ - ٢١ .

(٣) سورة المؤمنون، الآية ١٤ .

(٤) سورة البقرة، الآية ٢٦٠ .

## المبحث الأول

أورد القرآن الكريم شواهد، وأدلة، وبراهين قاطعة واضحة على وجود الخالق - سبحانه وتعالى - وقد كانت قضية وجود العالم، وخلق الناس، وتيسير الرزق - أدلة لا شك فيها على وجود الخالق، فلكل حادث محدث، ولكل مخلوق خالق، ولا بد للعالم من خالق، هو الله سبحانه وتعالى، فليس العالم كما يقول الملحدون: حادثاً بغير محدث، يقول تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيِّطِرُونَ ﴿١﴾﴾.

يقول عبد الرحمن السعدي في تفسير هذه الآيات: "وهذا استدلال عليهم بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين. وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

- إما أنهم خلقوا من غير شيء؛ أي: لا خالق خلقهم، بل وجود من غير إيجاد، ولا موجود، وهذا عين المحال.

- أم هم الخالقون لأنفسهم؟ وهذا أيضاً محال، فإنه لا يتصور أن يوجد أحد نفسه.

فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث، وهو: أن الله هو الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة، ولا تصلح إلا له تعالى.

وقوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا استفهام يدل على تقرير النفي. أي: ما خلقوا السموات والأرض، فيكونوا شركاء لله، وهذا أمر واضح جداً.

(بل) المكذبون (لا يوقنون)، أي: ليس عندهم يقين، يُوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية، والعقلية.

﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾، أي: أعند هؤلاء المكذابين خزائن رحمة ربك، فيعطون من يشاءون، ويمنعون من يشاءون؟ أي: فلذلك حجروا على الله أن يعطي النبوة عبده ورسوله، محمدًا ﷺ، وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله، وهم أحقر، وأذلُّ من ذلك، فليس في أيديهم لأنفسهم نفع ولا ضرر، ولا موت ولا حياة ولا نشور.

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾. (١)

﴿أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ﴾، أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء". (٢)

ولا شك أن الاستخبار هنا يتضمن نفياً وإنكاراً؛ فإنه من المعلوم لكل الناس أنهم لم يخلقوا أنفسهم، وأنهم لم يخلقوا العالم، وأنهم لا يملكون خزائن تمد الناس بالنعمة والأرزاق، وأنهم لا يسيرون أمور الوجود، بل إنهم لا يملكون أن يسيطروا على أمورهم الخاصة، ومن ثم فإنه لا بد أن يكون الخالق هو الله، خلق الناس والوجود، وعنده مقاليد كل شيء، وخزائن كل شيء.

وفي موضع آخر، يقول - سبحانه وتعالى - : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٤) يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥) ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦) الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾. (٣)

(١) سورة الزخرف، الآية ٣٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن السعدي ١٩٩٧/٧.

(٣) سورة السجدة، الآيات ٤-٧.

فهذه الآيات تقرر أن السموات والأرض وما فيها من مخلوقات، وأن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله تعالى، وأنه - جل شأنه - يدبر هذا الوجود كله، فهو الذي يُوجد ويعدم، ويُعطي ويمنع، ويُعز ويذل؛ لأنه عالم الغيب والشهادة، وهو العزيز الذي لا يغلب، الرحيم بخلقه، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأبدعه، وأنه بدأ خلق الإنسان من طين.

إن هذا الكون البديع، وما فيه من سماء وأرض، ومخلوقات متعددة، يدل على أن له خالقًا، ومبدعًا، وهو الله تعالى، ثم ختم هذه الآيات بمفارقة صريحة تتم عن إنكار هذا الإنسان لوجود خالقه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾<sup>(١)</sup> فتقابلون هذا الصنيع بالإنكار والجحود.

فمن الواجب على من أنعم الله عليه بنعمة الوجود، وعلى من أمده بالنعمة التي لا تحصى سواء نعمة الحياة والحركة، أو البصر والعقل، أن يشكر الله شكرًا كثيرًا في مقابل تلك النعم الكثيرة، ولكن الإنسان أكثر شيء جدلاً. وكان ظلومًا، فقابل النعمة العظمى بالشكر القليل، وتتبدى المفارقة في التناقض بين ما يجب أن يكون من كثرة الشكر، وبين ما كان قلته.

وفي موضع آخر نرى الدلائل الواضحات على وجوده سبحانه، فقال تعالى:

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئْكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُعْرِضُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مُحْرِمُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾

أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكِيرًا وَمَتَاعًا لِلْمُقِيمِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿١﴾.

هذه الآيات ذُكرت للدلالة على أن الله قادر على البعث والنشور، وإحياء الموتى من قبورهم للحساب، والثواب والعقاب، كما تدلُّ دلالة واضحة على أن هذا العالم مخلوق، ومربوب لرب حكيم، وخالق عظيم؛ لأن ما ذُكر في هذه الآيات من المخلوقات مستند إليه، وحادث بقدرته وإرادته، وتتضح المفارقة من كون المخلوق العاجز عن خلق شيء ينكر وجود الخالق على الرغم من وضوح الآيات الدالة على قدرته تعالى.

وتبدي المفارقة على هذا النحو: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾: خَلَقَ اللهُ لِلنَّاسِ وَاضِحٌ يَسْتَوْجِبُ التَّصَدِيقَ، لَكِنْ تَصَدِّقُهُمْ بَعِيدٌ، فَحُضُّهُمُ اللهُ عَلَى التَّصَدِيقِ ﴿ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾.

﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ : سؤَالٌ يَتَضَمَّنُ إِظْهَارَ التَّنَاقُضِ، بَيْنَ مَا يَرُونَهُ مِنْ أَنَّ اللهُ هُوَ الْخَالِقُ، وَعَجْزُهُمْ عَنِ الْخَلْقِ، ثُمَّ إِنكَارُهُمْ لَهُ. ﴿ وَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ : لَمْ يَقْتَرِنْ عِلْمُهُمُ بِالنَّشْأَةِ الْأُولَى بِالتَّذَكُّرِ وَالاعتبارِ، وَلِهَذَا حُضُّهُمُ اللهُ عَلَى التَّذَكُّرِ ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ يُسَمِّي ابن فارس هذا النمط من الاستفهام "استخباراً" يقول: (الاستخبار - طلب ما ليس عند المستخبر، وهو الاستفهام، وقد يكون مصطلح الاستخبار أصح فيما هو عن ربِّ العزة).

يقول ابن فارس: (والدليل على ذلك أن الباري - جل ثناؤه - وصف بالخبر، ولم يُوصف بالفهم). (٢).

(١) سورة الواقعة، الآيات ٥٧ - ٧٤.

(٢) الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس، ص ١٨٦.

والصواب أن يستخدم فيما نُسب لرب العزة مصطلح الاستخبار، وهو: استخبار بياني ليس لطلب معرفة الخبر، بل لبيان ما يتضمنه من معنى، أو ما يراد للمستخبر أن يفهمه. وقد أفاد السيوطي أن الاستفهام لا يكون لطلب فهم السائل، بل هو أيضًا لإفهام المسؤول، يقول: "ولا يدع في صدور الاستفهام عمن يعلم المستفهم عنه؛ لأن طلب الفهم إما طلب فهم المستفهم، أو وقوع فهم، لمن لا يفهم كائنًا من كان".<sup>(١)</sup>

وقد عرضنا لهذه القضايا؛ لأننا سنعرض لنماذج من هذا الاستخبار، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لأن استخدام مصطلح الاستخبار قد يبدو غريبًا، فكان علينا أن نوضّحه.

والاستخبار هنا: بياني وتوبيخي، فهو لبيان أن الزارع الحق هو الله، وأنهم ليسوا إلا عباد الله الذي خلقهم وأفعالهم وكل موجود وكل فعل.

وهذا جاء ما بعده من استخبار، وهو مع الاتفاق في كونه استخبارًا، فإنه لكل دلالة، ففي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾. استخبار يكشف عن قدرة الله التي لم يقابلها العباد من تسليم بأنه المعبود الحق، وبالشكر الذي يجب لكل منعم.

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾. استخبار يكشف عن قدرة الله، ونعمة الخالق.

إن اجتماع خلق الماء وإنزاله من المزن، وخلق النار، يشيران إلى أن الله خالق ما في الكون جميعًا من متشابهات ومن متضادات.

كذلك تعرّض القرآن لهذا الجانب في الحوار الذي دار بين موسى - عليه السلام - وفرعون، فأثبت به موسى وجود خالق مبدع لهذا الكون؛ يقول الله تعالى عن هذا الحوار:

---

(١) الإتيان في علوم القرآن، ص ٣٩٢.

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِن اتَّخَذَتِ إلهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ (١).

قدم موسى - عليه السلام - لفرعون في هذه الآيات الدليل تلو الدليل على وجود الله تعالى، وبين له الطريق الواضح لكن فرعون تجاهل هذا الحق، وتعالى على الأدلة وأنكرها، بعدما استبان له قوتها ووضوحها، فأنكر على موسى دليله، وأعرض عما تدل عليه الفطرة السليمة، والعقل الصحيح، فقد استدل موسى على وجود الله بدلالة الصنعة على الصانع، والأثر على المؤثر، ولكن فرعون أعرض عن ذلك وركب رأسه، فضلل وأضل، وفي هذا مفارقة صريحة، بين ما هو وضوح الدلالة، وما هو قائم على العناد والمكابرة.

ومن هذا القبيل، قوله سبحانه في خطابه لنبية محمد ﷺ: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبَالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ (٢).

فهذه الآيات تكشف عن التناقض في موقف المشركين وتصوراتهم، فهم يُقِرُّون بخلق الله للسموات والأرض، وتسخييره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من السماء، وإحيائه الأرض بعد

(١) سورة الشعراء، الآيات ٢٣ - ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت، الآيات ٦١ - ٦٧.

موتها، وما يتضمنه هذا من بسط الرزق لهم، أو تضيقه عليهم، وهم يتوجهون لله وحده بالدعاء عند الخوف ... ثم هم بعد ذلك كله يُشركون بالله، ويؤذون من يعبدونه وحده، ويفتنونهم عن عقيدتهم التي لا تناقض فيها، ولا اضطراب، وينسون نعمة الله عليهم في تأمينهم في البيت الحرام، وهم يُروِّعون عباده في بيته الحرام، وكانوا إذا سُئلوا عن خالق السموات والأرض، ومُسَخَّر الشمس والقمر، ومُنزل الماء من السماء، ومُحيي الأرض بعد موتها بهذا الماء ... يُقروُن أن صانع هذا كله هو الله، ولكنهم مع هذا يعبدون أصنامهم، أو يعبدون الجن، أو يعبدون الملائكة، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة، وإن لم يجعلوهم شركاء له في الخلق، وهذا تناقض عجيب، تناقض ينكره الله، ويوبخ عليه، فيقول: ﴿ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي: كيف يعزفون عن الحق إلى هذا التخليط العجيب؟ "بل أكثرهم لا يعقلون" فليس يعقل من يقبل عقله هذا التخليط! (١)

ويقول - سبحانه وتعالى - : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢)

يقول سيد قطب في تفسيره: "أولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشرك، ويقابلون دعوة رسول الله ﷺ بالجدال العنيف، لم يكونوا يستطيعون أن يريفوا منطق فطرتهم، حيث تواجه بالدليل الكوني الممثل في وجود السموات والأرض، وقيامها أمام العين، لا تحتاجان إلى أكثر من النظر، ومن ثم لم يكونوا يتلجلجون في الجواب لو سُئلوا: ﴿ من خلق السموات والأرض ﴾؟ وجوابهم ﴿ الله ﴾.. لذلك يوجه الله رسوله ﷺ ليعقب على جوابهم هذا بحمد الله: ﴿ قل الحمد لله ﴾ الحمد لله على وضوح الحق في الفطرة، والحمد لله على هذا الإقرار القهري أمام الدليل الكوني، والحمد لله على كل حال، ثم يضرب عن الجدال

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٥٠.

(٢) سورة لقمان، الآية ٢٥.



والتعقيب بتعقيب آخر: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾. ومن ثم يجادلون ويجهلون منطلق الفطرة، ودلالة هذا الكون على خالقه العظيم". (١)

وختام الآية بيان للأسباب التي جعلتهم لا يعملون بإقرارهم بأن الله هو الخالق وما يستوجبه هذا الإقرار من إيمان به تعالى. ويقول سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ﴾. (٢)

فهذه الشواهد الثلاث تدل بوضوح على مفارقة عجيبة في موقف الإنسان المكابر في عدم إيمانه بخالقه - سبحانه وتعالى -، بل إن هناك مواقف عملية تظهر فيها هذه المفارقة، وهي تدعو إلى ضرورة الاعتراف بوجود الله تعالى، ويكون هذا الاعتراف نابغاً من داخل الإنسان؛ اعتراف واضح، وإقرار صريح بربوبيته - سبحانه - وأن بيده مقاليد الأمور كلها، في الدنيا والآخرة، فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله، ولكن انحراف الفطرة أعجزهم عن ربط المقدمات بالنتائج؛ لأن إدراك العلاقات يبين تلك الأمور.

وقد ختم - سبحانه - هذه الآية، بقوله: ﴿فَأَنْتَى تُصْرَفُونَ﴾، أي: كيف توجهون بعيداً عن الحق، وهو واضح بيّن تراه العيون؟. (٣)

وهو استخبار يتضمن تعجباً وإنكاراً لموقفهم اللاعقلي، وتوبيخاً عليه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. (٤)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٧٩٤.

(٢) سورة يونس، الآيتان ٣١ - ٣٢.

(٣) في ظلال القرآن، لسيد قطب ٣/١٧٨٢.

(٤) سورة يونس، الآية ١٢.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. (١)

فهاتان الآيتان تدلان على أن هناك إيماناً فطرياً راسخاً، وعقيدة ثابتة في القلب تثبت أن هناك إلهاً خالقاً، مبدعاً لهذا الوجود، وأنه قادر على إزالة الضرر، ونجاة العبد إذا ما وقع في شدة أو كرب، وهذا الاقتضاء بالإيمان بالله تعالى دلّ على عدم اتخاذ الشريك والتدله - سبحانه - .

وتبدي المفارقة في أن هذا التسليم بقدرة الله تعالى - على تفريج الكرب - لم يردع الإنسان عن الغرور والمكابرة والإعراض عن طاعة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (٧٨) وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٨٠) بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠) مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾. (٢)

وتبدي المفارقات التي كشف عنها الخالق تعالى، على النحو التالي: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. إن النعم الكبرى لم تقابل إلا بشكر

(١) سورة الإسراء، الآية ٦٧.

(٢) سورة المؤمنون، الآيات ٧٨ - ٩١.

قليل، وهذا تناقض بين المقدمات والنتائج، فالذي يقدم لنا القليل نشكره كثيراً، فكيف بمن وهبنا كل شيء لا نشكره إلا قليلاً؟.

﴿ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وقد جاء الاستخبار في نهاية الآية، بقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾. أي: أيكون ما تعلمون من أن الله الذي ذرأكم في الأرض، وإليه تحشرون، وأنه هو الذي يحيي ويميت، ثم لا تسلمون له، وتقرؤون بالعبودية، وتمارون ... إن ذلك ما لا يفعله عاقل... وقد ختم الله تعالى هذه الآيات بدليل قاطع على ربوبيته ووحدانيته، فقال: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾.

وقال في سورة الأنبياء: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾. (١)

وقد استنبط المتكلمون من الآية دليلاً على وحدانية الله، يسمى: "دليل التمانع" فقالوا: "تفيد الآية أن العالم لو كان له صانعان لم يجر تديبرهما على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما، فتتناقض؛ لاستحالة تجزؤ الفعل، إن فرض الاتفاق، أو لامتناع الضدين إن فرض الاختلاف، وأما ألا تنفذ إرادتهما، فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما. فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً". (٢)

(١) سورة الأنبياء، الآيتان ٢٢، ٢٣.

(٢) مباحث في علوم القرآن، للقصبي محمود زلط، ص ١٠٠.

## المبحث الثاني

### الإيمان بقدرة الله على الخلق الأول وإنكار هذا البعث

وَرَدَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْعَدِيدُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى إِمْكَانِيَةِ الْبَعْثِ، وَرَدَّ حُجْجَ الْمُنْكَرِينَ لَهُ، وَفَنَّدَ شَبَهَهُمْ، وَكَانَ مِنْ أَهَمِّ شَبَهَاتِ مُنْكَرِي الْبَعْثِ: اسْتِحْوَاطُ الْإِجَادَةِ الْأَشْيَاءِ وَالْكَائِنَاتِ بَعْدَ عَدَمِهَا وَفَنَائِهَا، وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ وَبَرَهَنَ لَهُمْ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُسْتَحِيلٍ؛ إِذْ إِنْ مِنْ مَوْجِبَاتِ الْعَقْلِ أَنَّ إِعَادَةَ الشَّيْءِ الَّذِي كَانَ مَوْجُودًا ثُمَّ فِي أَسْهَلِ مِنْ إِجَادَتِهِ ابْتِدَاءً، فَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- الَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْعَدَمِ وَأَبْرَزَهَا إِلَى الْوُجُودِ بَعْدَ أَنْ لَمْ تَكُنْ شَيْئًا، لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيدَهَا مَرَّةً وَمَرَّةً بَعْدَ فَنَائِهَا، وَيَلَاحِظُ أَنَّ الَّذِي يَبْنِي بَيْتًا ثُمَّ يَهْدِمُهُ لَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ إِعَادَةُ بِنَائِهِ كَمَا كَانَ، أَوْ أَفْضَلُ مِمَّا كَانَ، وَالَّذِي يَخْتَرَعُ اخْتِرَاعًا مُعَيَّنًا، أَوْ يَرَكِّبُ جِهَازًا مَا، لَا يَصْعَبُ عَلَيْهِ أَنْ يَعِيدَهُ مَرَّةً أُخْرَى إِذَا مَا فَرَّقَ أَجْزَاءَهُ أَوْ كَسَرَهُ بِاخْتِيَارِهِ وَإِرَادَتِهِ. وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَى هَذَا الدَّلِيلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. (١) إِذْ احْتَجَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِالْإِبْدَاءِ عَلَى الْإِعَادَةِ، وَبِالنَّشْأَةِ الْأُولَى عَلَى النَّشْأَةِ الْأُخْرَى؛ إِذْ كُلُّ عَاقِلٍ يَعْلَمُ عِلْمًا ضَرُورِيًّا أَنَّ مَنْ قَدَرَ عَلَى هَذِهِ قَدَرَ عَلَى هَذَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثَّانِيَةِ، لَعَجَزَ عَنِ الْأُولَى، بَلْ كَانَ أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ، وَلَمَا كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَةَ الْخَالِقِ عَلَى مَخْلُوقِهِ، وَعَلِمَهُ بِتَفْصِيلِ خَلْقِهِ اتَّبَعَ ذَلِكَ، فَهُوَ عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، وَتَفَاصِيلِ مَوَادِّهِ وَصُورَتِهِ، وَكَذَلِكَ عَلِيمٌ بِالْخَلْقِ الثَّانِي، فَإِذَا كَانَ تَامَ الْعِلْمُ كَامِلَ الْقُدْرَةِ، فَكَيْفَ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ أَنْ يُحْيِيَ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ؟! وَتَشِيرُ الْآيَةُ إِلَى التَّنَاقُضِ فِي مَوْقِفِ الْمُنْكَرِ لِإِعَادَةِ الْخَلْقِ، وَهُوَ تَنَاقُضٌ مُبْنِي عَلَى مَفَارِقَةٍ...

(١) سورة يس، الآيتان ٧٨، ٧٩.

وردُّ السؤال يتضمن نوعًا من التهكم على هذا الذي لا يدرك البدهيات، ويستبعد اجتماع المؤتلفات، ومن ثم يقرر العزيز القدير قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (١)

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير هذه الآية: ﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ يعني: أيسر عليه. وقال مجاهد: الإعادة أهون عليه من البداءة، والبداءة عليه هينة، وروى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: "كذبتني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فقلوه: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي، فقلوه: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد، لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفؤًا أحد". (٢)

وفي سورة الإسراء ما يجلي هذه الحقيقة، إذ يصوّر القرآن الكريم موقف الكفار من البعث، وإنكارهم له، فيقول سبحانه: ﴿وَقَالُوا أَبَدًا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَنْبَعُوثِنَا خَلْقًا بَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾. (٣)

والاستفهام يتضمن استبعادًا لإعادة الخلق، وهو استبعاد - مع وجود نقائضه - يكشف عن نوع من السذاجة والبله، ولهذا فإن التصريح بذلك يقترن بنوع من التهكم. فالمنكرون للبعث تكاد شبهاتهم أن تكون متجانسة؛ لأنها تدور حول استبعاد جميع الأجزاء بعد تفرقتها، وإعادة الحياة إليها بعد فنائها، وهذه الشبه لا تكون إلا بالقدر في كمال علم الله، المحيط بكل شيء، وكمال قدرته على كل شيء، وقد قام البرهان على كمال العلم، والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ

(١) سورة الروم، الآية ٢٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة (قل هو الله أحد)، وانظر: مجلة البحوث الإسلامية، العدد: ٣٦ ص ٣١٨ وما بعدها، بحث لأحمد جلي بتصرف.

(٣) سورة الإسراء، الآيات ٤٩ - ٥٢.

كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١﴾.

يعني به أنكم مهما تفرقتم، وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادةكم، حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد، فإن الله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى، مع أن المنافاة بين الحجرية، والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظم وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءًا من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا ألبته موصوفين بالحياة.

وفي قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على الثانية، وهذا هو الشاهد من الآية. أما قولهم (متى هو؟) . فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي؛ لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بيّن بالبرهان الباهر كونه ممكنًا في نفسه، فقولهم متى هو؟ كلام لا تعلق له بالبعث الأول، فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه، فأما أنه متى يوجد؟ فذاك لا يمكن إثباته من طريق العقل، بل يمكن إثباته بالدلائل السمعية، فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عرف، وإلا فلا سبيل إلى معرفته. (٢)

وفي جانب آخر يعرض لنا القرآن هذا الاستبعاد مع وجوده في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾. (٣)

فالقرآن الكريم يحاجُّ الكافر، والمنكر للبعث بإرجاعه إلى خلقه الأول، ومن أين نشأ؟ فيعرض له أصل خلقته، ثم يبين له أن الذي خلقه على هذه الطريقة والكيفية قادر على

(١) سورة الإسراء، الآيتان ٥٠، ٥١.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٠/٢٢٦، ودراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لظاهر الأملعي ص ٢٨٢، وما بعدها.

(٣) سورة الطارق، الآيات ٥ - ١٠.

إرجاعه حيًّا كما كان، وأعظم مما كان، وذلك يوم تبلى السرائر، وتعرف العقائد والنيات الصالحة من الفاسدة، عندئذٍ ليس للكافر والمكذب بالبعث والحياة من قوة يدفع بها عن نفسه عذاب ربه، ولا ناصر ينصره فيخلصه من العذاب.

وفي المقام نفسه جاءت آيات سورة الغاشية؛ لتدل أيضًا على حقيقة البعث بعد الممات، فتوجه أنظار الكفار على حقائق أمام أعينهم، في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾. (١)

والمعنى: أينكرون البعث والجزاء وما أعد الله لأوليائه من النعيم المقيم، وما أعد لأعدائه من عذاب الجحيم؟ فلا ينظرون نظرة اعتبار إلى الإبل كيف خلقت؟ وإلى السماء كيف رفعت؟ وإلى الجبال كيف نصبت؟ وإلى الأرض كيف سطحت؟ فهل خلق الإبل على تلك الصورة العجيبة، وذاك التسخير لها، وما فيها من منافع؛ إذ يشرب لبنها، ويركب ظهرها ويؤكل لحمها - لا يدل على قدرة الخالق على إحياء الموتى؟ وهل خلق السماء بكواكبها وشمسها وقمرها، ثم رفعها بغير عمد يدعمها، ولا سند يسندها - لا يدل على قدرة الله على بعث الموتى أحياء؛ ليحاسبهم ويجزيهم؟ وهل نصب الجبال بعد خلق ترابها، وإيجاد صخورها، لا يدل على قدرة الله خالقها على بعث الرميم، وإيجاد الأجساد البالية كيف شاء ومتى شاء؟ وهل خلق الأرض بكل ما فيها، ثم بسطها، وتسطيحها للحياة عليها، والسير فوقها، وتعميرها بأنواع العمران، لا يدل على قدرة الله على البعث والجزاء؟ فما للقوم لا ينظرون ولا يفكرون.

وفي موضع آخر جاءت الآيات من سورة الإنسان، في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا (٢٦) إِنَّ هَؤُلَاءِ يُجِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا (٢٧) نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا (٢٨) إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ فَمَنْ

شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٣٠)  
يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١﴾.

وتتمثل المفارقة في إنكار الإنسان للبعث، وتسليمه بخلقه بعد أن لم يكن، فهو دليل في غاية الوضوح والبيان ولا يحتاج إلى عمق في التفكير، ولا إلى بحث وتفتيش؛ إذ يكفي الإنسان أن يدرك كيف كان خلقه، وكيف كان تكوينه، فإذا أدرك أن الله تعالى خلقه من نطفة ثم مضغة، ثم كونه خلقًا آخر إنسانًا في أحسن تقويم، فإذا أدرك هذا أدرك أن إعادته بعد موته أهون في بدئه.

وقد حكم القرآن الكريم على المنكرين للبعث بالجهل، وعدم التسليم بحقيقة ذلك، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾. (٢)

وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُخَلَّقَةٍ لِنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ بِهَيْجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾. (٣)

تشير هذه الآيات إلى نوع من المفارقة بين ما هو واقع بالفعل من تصور عند هؤلاء المنكرين، وبين ما يجب أن يكونوا عليه من التصديق بوقوع البعث بعد الممات، إذ القرآن يصوّر لنا ذلك بدليلين عقليين بمثابة الرد على هؤلاء المنكرين، يشاهدوهما:

(١) سورة الإنسان، الآيات ٣٦ - ٤١ .

(٢) سورة الجاثية، الآية ٢٤ .

(٣) سورة الحج، الآيات ٥ - ٧ .



أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه، سيُعيدُه فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أبي البشر، آدم - عليه السلام - ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق. أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله، دمًا أحمر. ﴿ثُمَّ مِنْ مَضْغَةٍ﴾ أي: ينتقل الدم مضغًا، أي قطعة لحم، بقدر ما يمضغ. وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةً﴾ أي: مصوّر منها خلق الآدمي، ﴿وَعَبْرٍ مُخَلَّقَةٍ﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها...  
**والدليل الثاني: إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾،**

أي: خاشعة، مغبرة، لا نبات فيها، ولا خضرة. (١)

وهكذا نرى أن المنهج القرآني في إظهار زيف موقف المنكرين للبعث يقتزن في بعض جوانبه بإظهار المفارقات التي يتضمنها موقفهم.. فالموقف الذي يتضمن مفارقة هنا هو الموقف الذي تتناقض عناصره بحيث إن المقدمة لا تقود إلى النتيجة، فإذا كانت المقدمة زائفة، كانت النتيجة زائفة، ولهذا فإن ادعاءهم أن العظام إذا بليت لا تعود إلى الحياة لا يقوم على رأي صحيح، بل هو رأي فاسد، بدليل أن الخالق القادر الذي أوجدها أول مرة من العدم قادر على أن يوجدها ويبعثها ويبث فيها الحياة.

## المبحث الثالث

### التناقض بين التسليم بخلق السموات والأرض لله

#### وإنكار خلق الإنسان

مدار هذا المبحث يقوم على مكابرة الإنسان الكافر وعناده، وذلك بعدم إقراره بحقيقة خلقه - وهو خلق هين - وقبوله بخلق السموات والأرض - وهي أعظم من خلقه - وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. (١)

فالله - عز وجل - يقرر في هاتين الآيتين أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس وأعظم، ويبين أن القادر على خلق هذا الأمر الأعظم قادر على خلق الأمر الأدنى والأصغر، ومن ثم فإنه قادر على خلق الإنسان وإعادته؛ لأن ذلك أسهل، وأيسر بحسب المقاييس البشرية من خلق السموات والأرض. فإذا كان الله تعالى قادرًا على خلق السموات والأرض، وهي من أعظم المخلوقات، فقدرتة على خلق الإنسان وإعادته من باب أولى، وهنا تأتي المفارقة في القدرة والتكوين، وهذا ما نجده في قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. (٢) فهو خير شاهد على ما ذكرنا.

ولا شك أن من كان قادرًا على خلق السموات والأرض - وهما من المخلوقات العظيمة - قادر على خلق الإنسان، وإعادته بعد الموت؛ كي يلقي جزاءه في الآخرة، ثوابًا على طاعته، أو عقابًا على معصيته. (٣)

(١) سورة يس، الآيتان ٨١ - ٨٢.

(٢) سورة غافر، الآيات ٥٦ - ٥٨.

(٣) في الفكر الإسلامي، لعوض الله حجازي وآخرين، ص ٧٥.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٥٦) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَنذَرُونَ ﴾ (١).

وتتضمن الآيات دليلاً على تهافت موقف الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان من العلم، أو سلطان من القوة، وتتمثل المفارقة في إقرارهم بأن خلق السموات والأرض أكبر من خلقهم، وأن خالق السموات والأرض قادر على خلق الناس، ثم إنكارهم خلق الله للناس، ولهذا كان تشبيهه المجادل ضمناً بالأعمى الذي لا يستوي بمن أضاء الله بصيرته.

فالله تعالى يخاطب كفار مكة، وقد نزلهم منزلة من لا يعلم، فضرب مثلاً لهم وللمؤمنين، فمثل الذين يجادلون في أمر البعث مع وضوح إمكانه مثل الأعمى، ومثل المؤمنين الذين آمنوا به حال البصير، وقد علم حال المؤمنين من مفهوم صفة أكثر الناس، لأن الأكثرين من الذين لا يعلمون يقابلهم أقلون يعلمون.

ويوضح هذا المفهوم كذلك قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَنْ يَعْبُدُ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢).

فهو استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت بما هو أبلغ منها، وهو: أنه الذي خلق السموات والأرض على عظمها وسعتها، واتفق خلقهما مع عظمها دون إعفاء يلحق من ذلك، فكيف تعجزه إعادتك بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟

ويتضمن الاستفهام نوعاً من الإنكار والتهكم القائم على زيف موقف هؤلاء الذين يرون البراهين الساطعة، على قدرة الله، ثم لا يسلم بقدرته تعالى على بعث الناس للحساب.

(١) سورة غافر، الآيات ٥٦ - ٥٨.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ٣٣.

وتتكرر الإشارات القرآنية التي تكشف عن مكابرة الجاهلين وعنادهم بحيث يظهر لهم، وللناس فساد رأيهم ورؤيتهم، فالقادر على الخلق قادر على الإعادة، فإذا لم يكن ذلك كافيًا - وهو كافٍ - فإن البرهان الساطع الذي لا مرء فيه عند كل ذي نظر، أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، سواء في ابتدائهم، أو في إعادتهم، وهذا ما أشارت إليه الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. (١)

## المبحث الرابع

### حب الله وعدم الشكر على نعماته

دعا القرآن الكريم الإنسان إلى محبة الله محبة تفوق كل ما في الكون، مما تميل إليه نفسه وتشتهيه، مبيناً أن عباده المؤمنين هم: ﴿أشد حباً لله﴾<sup>(١)</sup>.

فقد قال - سبحانه وتعالى - : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

ومحبته لا تقتصر على التلفظ بها فحسب، بل لابد أن يتبع ذلك بالعمل والطاعة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلاوة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران: أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيها هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّت عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدّم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله؛ دلّ على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه.<sup>(٣)</sup>

ونظراً لأن محبة الإنسان لنفسه، وتقديمها على محبة الله تورده مواطن الهلاك؛ فقد بيّن القرآن ذلك؛ إذ أن محبة الإنسان لنفسه تتضح في ثلاثة محاور:

المحور الأول: حب الإنسان للمال.

المحور الثاني: حب الإنسان للنساء.

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٥.

(٢) سورة التوبة، الآية ٢٤.

(٣) تيسير الكريم المنان، للسعدي ٢١٤/٣.

المحور الثالث: حب الإنسان للولد.

## المحور الأول: حب الإنسان للمال.

المال زينة الحياة الدنيا يصل الإنسان عن طريقه إلى ما يريد من زينة الحياة ومتاعها، ويشارك المال في هذه الصفة الأولاد، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾. (١)

وجعل الله تعالى أنواع المال من الذهب، والفضة، والحيل، والأنعام، والحراث، من الشهوات التي أخبر أنها زينة للناس، فرغبتهم في الحصول عليها قوية شديدة، وحرصهم عليها عظيم كبير، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْحَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾. (٢)

والمال فتنة افتتن الناس به؛ ليحصل الابتلاء والاختبار للناس في حياتهم، فهو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس، في كسبه وإنفاقه وكنزه، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس، وهو مازال مثيراً للعدوان بين الأفراد والجماعات، من الأقوام والدول، وأدى إل التقاطع والتدابير، حتى بين الآباء والأبناء، والإخوة، وهو حلال المشكلات، وشفاء المعضلات.

فلا شك أن هذا البلاء فتنة لصاحب المال نفسه، وكذا لغيره، فالغني فتنة للفقير، حيث يراه ويشاهده، يتمتع بهذه النعم، وهو عاجز عنها، فهل يصير أو لا؟.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِهْتَمُّ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾. (٣)

(١) سورة الكهف، الآية ٤٦ .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤ .

(٣) سورة الفرقان، الآية ٢٠، وانظر: المال في القرآن الكريم، دراسة موضوعية، لسليمان الحصين ص ٣٢ وما بعدها.

وقد تصل فتنة المال بالإنسان إلى عبادته له بسعيه في الحصول عليه من كل طريق،  
وقبض اليد عن الإنفاق فيما أوجب الله تعالى، وقد أخبر الله - عز وجل - في كتابه الكريم،  
عن كون المال فتنة، لكي يحذر المؤمنون من الافتتان به، وجاء ذلك مقترناً بفتنة الأولاد:  
﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. (١)

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. (٢)

إذاً ربما دفع حب الأولاد، والسعي لطلب الرزق لهم، إلى عدم الالتقاء في هذا الكسب،  
فتحصل الفتنة، ومن هنا كانت المفارقة في أداء الحصر الواقعة في آيتي الأنفال والتغابن.  
فالإنسان يلهث في هذه الحياة سعياً لجمع المال وكنزه، وقد يكون بطريق مشروع، وقد  
يكون بغير ذلك، لذلك فالله في بيانه لفطرة الإنسان لم يكبت هذا الشعور في جني المال، إنما  
دعا الإنسان إلى تنظيمه وضبطه بحيث لا يتعدى حدود المأمور به.

والمفارقة في ما يتصل بالمال أن المال من عند الله - سبحانه وتعالى - ومن ثم فإن  
العطية لا تصرف عن الاعتراف للمعطي بالفضل، بل توجب الشكر على هذه العطية.

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ  
إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. (٣)

فقد امتن الله - عز وجل - على عباده، فأذن لهم أن يأكلوا مما رزقهم من الحلال  
الطيب، ويشكروه على ذلك بعبادته وحده، وهذا شأن من يعبد الله تعالى وحده، فإنه يشكره  
على ما أنعم به عليه، وفي مقابل هذا الامتنان يأتي العكس، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ  
مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾. (٤)

(١) سورة الأنفال، الآية ٢٨.

(٢) سورة التغابن، الآية ١٥.

(٣) سورة النحل، الآية ١١٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية ١٠.

أي: أقدرناكم على أمور أَلزمتناكم بها، وحوَّلنا لكم التصرف في مخلوقاتنا، وذلك بما أودع الله في البشر من قوة العقل والتفكير، التي أهَّلته لسيادة هذا العالم، والتغلب على مصاعبه، وجعلنا لكم فيها ما تعيشون به من الطعام والشراب، ولكن شكركم لله قليل، ومن هنا تأتي المفارقة؛ إذ الشكر على نعم الله يتفق والمنهج السليم، ويوجب العقل، وعدم الشكر عليها جهل وسفه، وفي هذا مفارقة، فمحنة الإنسان للمال يجب ألا تشغله عن واهب المال، ولا أن تصرفه عن شكر الله على ما وهبه له منه، لكن كثيرًا من الناس يشغلهم حب نعم الله عن الله، ويُلهمهم القريب الزائل عن البعيد الخالد، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. (١)

فهذه الآية واقعة موقع الاستدراك على قوله: ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾. (٢)

أي: أن تأخير العذاب عنهم هو من فضل الله عليهم، وهذا خبر خاص بالنبي ﷺ؛ تنبيهًا على أن تأخير المواعيد أثر من آثار رحمة الله؛ لأن أزمنة التأخير أزمنة إمهال، فهم فيها بنعمة، لأن الله ذو فضل على الناس كلهم، لكن أكثرهم لا يشكرون، وهذا استدراك ناشئ عن عموم الفضل منه تعالى، فإن عمومته وتكرره يستحق أن يعلمه الناس فيشكروه، ولكن أكثر الناس لا يشكرون كهؤلاء الذين قالوا: متى هذا الوعد؟، فإنهم يستعجلون العذاب تهكمًا وتعجيزًا في زعمهم غير مقدرين قدر نعمة الإمهال.

وفي سورة يس جاءت الآية من قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾. (٣)

(١) سورة النمل، الآية ٧٣.

(٢) سورة النمل، الآية ٧٢.

(٣) سورة يس، الآيات ٣٣ - ٣٥.



فآية الله هنا مشهودة منظورة بين أيديهم ليست غائبة ولا بعيدة، ولا غامضة تحتاج إلى تدبر أو تفكير ... إنها هذه الأنعام التي خلقها الله لهم وملّكهم إيّاها، وذلكها لهم يركبونها، ويأكلون منها، ويشربون ألبانها، وينتفعون بها منافع شتى ... وكل ذلك من قدرة الله وتدييره، ومن إبداعه ما أودع من الخصائص في الناس، وفي الأنعام، فجعلهم قادرين على تذليلها، واستخدامها والانتفاع بها، وجعلها مدلّلة ملبية لشتى حاجات الإنسان، وما يملك الناس أن يضعوا من ذلك كله شيئاً، وما يملكون أن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، وما يملكون أن يذلوا ذبابة لم يركب الله في خصائصها أن تكون ذلولاً لهم! "أفلا يشكرون؟".

وحين ينظر الإنسان إلى هذا الأمر بهذه العين، وفي هذا الضوء الذي يشيعه القرآن الكريم؛ فإنه يحس لتوّه أنه مغمور بفيض من نعم الله، فيض يتمثل في كل شيء حوله، وتصبح كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة من لحم، أو يشرب جرعة من لبن، أو يتناول قطعة من سمن، أو جبن، أو يلبس ثوباً من شعر، أو صوف، أو وبر... إلخ.

لمسة وجدانية تُشعر قلبه بوجود الخالق، ورحمته ونعمته، ويطرّد هذا في كل ما تمس يده من أشياء حوله ... ولكن الناس لا يشكرون، وفيهم من اتخذ مع هذا كله آلهة يحميها من أن يعتدي عليها معتد، أو يصيبها بسوء، فكانوا هم جنودها، وحماها المُعدّين لنصرتها، وكان هذا غاية في سخر التصور والتفكير. (١)

وأخيراً جاء قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَدُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. (٢)

يقول سيد قطب، في معرض تفسيره لهذه الآيات: "والليل والنهار ظاهران كونيتان، والأرض والسماء خلقان كونيان كذلك، وهو تذكّر مع تصوير الله للبشر، وإحسان صورهم،

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٥/٢٩٧٥.

(٢) سورة غافر، الآيات ٦١-٦٥.

ومع رزق الله لهم من الطيبات، وتعرض كلها في معرض نعم الله، وفضله على الناس، وفي معرض الوجدانية، وإخلاص الدين لله، فيدل هذا على ارتباط هذه الظواهر، والخلائق، والمعاني، وعلى وجود الصلة بينها، ووجوب تدبرها في محيطها الواسع، وملاحظة الارتباط بينها، والاتفاق...". (١)

ثم استطرده بقوله: فهذه كلها أمور مرتبطة متناسقة... ومن ثم يذكرها القرآن في مكان واحد، بهذا الترابط، ويتخذ منها برهانه على وحدانية الخالق، ويوجه في ظلها القلب البشري إلى دعوة الله وحده، مخلصاً له الدين، هاتفاً: الحمد لله رب العالمين، ويقرر أن الذي يصنع هذا، ويبدعه بهذا التناسق، هو الذي يليق أن يكون إلهاً، وهو الله رب العالمين، فكيف يصرف الناس عن هذا الحق الواضح المبين؟ وفي هذا مفارقة صريحة. (٢)

### المحور الثاني: حب الإنسان للنساء:

تعدُّ النساء شهوة قوية من شهوات النفس الإنسانية، فالميل إلى النساء مركز في الطبع، وضعه الله؛ لحكمة بقاء النوع بداعي طلب التناسل؛ إذ المرأة هي موضع التناسل، فجعل ميل الرجل إليها في الطبع حتى لا يحتاج بقاء النوع إلى تكلف ربما تعقبه سامة، وفي الحديث: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء". (٣)

ولذا يقول سبحانه: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾. (٤)

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٠٩٢/٥.

(٢) المرجع السابق.

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤون المرأة، وتفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ١٨١/٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٤.

فالنساء محل الشهوة، وهي فتنة للرجال، فبدأ الله تعالى بهن، لكن جاء التحذير عن هذه المحبة، إذا تعدت مرحلة لا ينبغي لها أن تتعداها، وقد وصفت بكونها عدوًا، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾. (١)

فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة، وملهاة عن ذكر الله، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في تبعات الإيمان؛ اتقاءً للمتاعب التي تحيط بهم لو قام المؤمن بواجبه فلقي ما يلقاه المجاهد في سبيل الله، والمجاهد في سبيل الله يتعرض لخسارة الكثير، والتضحية الكثيرة، كما يتعرض هو وأهله للعنت، وقد يحتمل العنت في نفسه، ولا يتحملة في زوجه وولده، فيدخل ويجن؛ ليوفر لهم الأمن والاستقرار، أو المتاع والمال، فيكونون عدوًا له؛ لأنهم صدوه عن الخير، وعوقوه عن تحقيق غاية وجوده الإنساني العليا، كما أنهم يقفون له في الطريق يمنعون من النهوض بواجبه، اتقاء لما يصيبهم من جرائه، أو لأنهم قد يكونون في طريق غير طريقه، ويعجز هو عن المفاضلة بينه وبينهم، والتجرد لله، وهي كذلك صور من صور العداوة متفاوتة الدرجات ... وهذه وتلك مما يقع في حياة المؤمن في كل آن. (٢)

وفي هذا مفارقة بين حبه تحقيق شهوته من النساء، وبين كون هذه الشهوة قد تؤدي به إلى الوقوع في المزالق والمتاهات، التي تجرّه إلى محبة شهوته، وتقديمها على محبة الله من طاعته، واتباع أوامره.

فالواجب على الإنسان ألا يشغله هذا الحب عمن وهبه هذا الحب، ولا أن يصرفه عن شكر الله على ما وهب له من هذه النعم، لكن كثيرًا من الناس يشغلهم حب نعم الله، ويلهيهم القريب الزائل عن البعيد الخالد.

(١) سورة التغابن، الآية ١٥.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ٦/٣٥٨٩.

## المحور الثالث: حب الولد:

جعل الله - سبحانه وتعالى - محبة الأبناء فطرية؛ إذ جعل الله في الوالدين من الرجال والنساء شعورًا وجدانيًا بأن الولد قطعة منهما، ليكون ذلك مدعاة إلى المحافظة على الولد الذي هو جيل المستقبل، وبقائه بقاء النوع، فبقاء النوع يحفظ من الاضمحلال العارض على النوع بالاعتداء على الضعيف؛ لأن الإنسان يعرض له الضعف بعد القوة، فيكون ولده دافعًا عنه عدوان من يعتدي عليه، فكما دفع الوالد عن ابنه في حال ضعفه، يدفع الولد عن الوالد في حال ضعفه، ولعل آيتي آل عمران، والكهف تصدقان ما ذكرناه من محبة الإنسان للولد من قوله تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (١).

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٢).

وقد تكون هذه المحبة فتنة للإنسان، وبخاصة إذا كانت المفاضلة، أو التقديم على محبة الله ورسوله ﷺ، وفي هذا مفارقة بين فطرية الإنسان، وما يجب أن يكون عليه تجاه خالقه، وفي هذا يقول - سبحانه وتعالى - مبيناً أثر ذلك: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٣).

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤.

(٢) سورة الكهف، الآية ٤٦.

(٣) سورة التوبة، الآية ٢٤.

فقد جمعت هذه الآية أصنافاً من المحبوبات من شأنها أن تألفها النفوس، وترغب في القرب منها، وعدم مفارقتها، فإذا كان الثبات على الإيمان يجر إلى هجران بعضها كالأبناء والإخوان الكافرين، وكالأبناء، والأزواج، والعشيرة، الذين يألف المرء البقاء بينهم، فلعل ذلك يقعده عن الغزو، والأموال والتجارة التي تصد عن الغزو، وعن الإنفاق في سبيل الله، وكذلك المساكن التي يألف المرء الإقامة فيها، فيصده إلفها عن الغزو، فإذا حصل التعارض والتدافع بين ما أَرَادَهُ اللهُ من المؤمنين، وبين ما تجرُّ إليه تلك العلائق، وجب على المؤمن دحضها، وإرضاء ربه. (١)

فالواجب على الإنسان ألا يشغله محبته للولد - وهي نعمة عظيمة - عن واهبها له، وهو الله تعالى.

---

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ١٦١٥/٣ بتصرف.

## المبحث الخامس

### الاغترار بالدنيا

يعرض القرآن الكريم حالة الإنسان في هذه الحياة مبيناً غروره بها، ظناً منه أنه خالد مخلد، يكد ويكدح متجاهلاً، ومتناسياً، أنها زائلة لا محالة، وفي هذا الصدد تعرض الآيات موقف الإنسان تجاه الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾. (١)

وقوله أيضاً: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا هُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. (٢)

فالله تعالى يذكر أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتر على من يشاء؛ لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدرج لهم وإمهال كما قال: ﴿نَسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. (٣)

ثم حقر الحياة الدنيا إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة، فقال: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾. (٤)  
كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلَمُونَ فَتِيلًا﴾. (٥)

وقال: ﴿وَرَزَّابِي مَبْنُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾. (٦)

(١) سورة الرعد، الآية ٢٦.

(٢) سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

(٣) سورة المؤمنون، الآية ٥٦.

(٤) سورة الرعد، الآية ٢٦.

(٥) سورة النساء، الآية ٧٧.

(٦) سورة الأعلى، الآيتان ١٦، ١٧.

وجاءت آية آل عمران لتجلي هذه الحقيقة، وتوضح المفارقة بين الاغترار بالحياة الدنيا، وبين مآل الإنسان إلى الآخرة وتوفيه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾ (١).

فالآية تسلية للنبي ﷺ ولأمتة عن الدنيا وأهلها، ووعده بالفلاح في الآخرة، فبالفكر في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم.

والمعنى: كل نفس مخلوقة حية، قد حكم عليها بالموت لا محالة، فلماذا الاغترار بملذات الدنيا وشهواتها، وما فيها من زينة وزخارف، فهي لا محالة زائلة، ولهذا شبه - سبحانه - الدنيا بالمتاع، الذي يدلس به على من يريد، وله ظاهر محبوب، وباطن مكروه، (٢) ووصف الله الدنيا بالمتاع؛ نظرًا لقصر الفترة الزمنية التي يعيشها الإنسان، فوصفت بالمتاع في مقابل الآخرة، أيضًا مجيئها بهذا الوصف بصيغة التعجب - هي وغيرها من الآيات - من نظر الإنسان إلى الشيء الفاني المضمحل واغتراره به، دون تطلعه إلى الشيء الباقي الدائم، وفي هذا مفارقة عجيبة في نفسية الإنسان الكافر، على وجه الخصوص.

ويصدق ذلك الخبر الوارد عن الصادق المصدوق ﷺ: "موضع سوط في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ﴾". (٣)

قال الخازن في تفسيره: "إن العيش في هذه الدنيا الفانية يغر الإنسان بما يمينه من طول البقاء، وسينقطع عن قريب، فوصفت بأنها متاع الغرور؛ لأنها تغير ببذل المحبوب، وتحيل للإنسان أنه يدوم، وليس بدائم". (٤)

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٢) روح المعاني للألوسي ١٤٥/٤، وفتح القدير للشوكاني ٤٠٨/١.

(٣) رواه الترمذي في سننه ٢٣٢/٥ ح ٣٠٣١ وقال أبو عيسى: "حديث حسن صحيح".

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن ٤٦١/١.

## الفصل الثاني

### الرسول والرسالة

ويتضمن المباحث التالية:

المبحث الأول: بشرية الرسول واستبعاد بعضهم موته.

المبحث الثاني: موقف اليهود من الرسالة والرسول.

المبحث الثالث: ادعاء اليهود طاعة أنبيائهم واعتداؤهم عليهم.

المبحث الرابع: موقف بعض الأمم من أنبيائهم.



## المبحث الأول

### بشرية الرسول واستبعاد بعضهم موته

شاءت حكمة الله السامية أن يخلق الجن والإنس ليعبده سبحانه، ومصداق ذلك قوله

تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. (١)

وعبادة الله - تعالى - دون شريك - تعني أن يوحد العباد، التوحيد الخالص الحق، وقد

أرسل الله الرسل والأنبياء؛ لهداية الناس لعبادته وتوحيده، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ

الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾. (٢)

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

فَاعْبُدُونِ﴾. (٣)

وقد شاءت حكمته - تعالى - أن يكون الرسل بشرًا، تحقيقًا لمصداقية الرسالة، وحتى

لا تكون للناس حجة، وقد بين القرآن الكريم على وجه الخصوص، أن النبي محمدًا ﷺ بشر

رسول، قد بعثه الله؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ

مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ

بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾. (٤)

---

(١) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

(٢) سورة النحل، الآية ٣٦.

(٣) سورة الأنبياء، الآية ٢٥.

(٤) سورة الكهف، الآية ١١٠.

قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المشركين يا محمد: إنما أنا بشر مثلكم من بني آدم، لا علم لي إلا ما علمني الله، وإن الله يوحى إليّ أن معبودكم الذي يجب عليكم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، معبود واحد لا ثاني له، ولا شريك". (١)

كانت هذه الصفة المطردة صفة لازمة في كل الرسل قبله، مصداق ذلك، قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. (٢)

قال ابن عطية في تفسيره: "المعنى: صدقتم في قولكم. أي: بشر في الأشخاص والخلقة، ولكن تبايننا بفضل الله تعالى ومنه، الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾، (٣) فإن ذلك في المعنى، لا في الهيئة. (٤)

فقد أنكر كفار مكة على الرسول محمد ﷺ أن يكون بشراً مثلهم، وفي هذا يقول - سبحانه - مبيناً اعتراضهم: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾. (٥)

ويكشف موقف الكفار عن مفارقة؛ حيث إن مصداقية الرسول أن يكون من جنس المدعوين، لا أن يكون من جنس غير جنسهم.

وقوله: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾. (٦)

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن لابن جرير الطبري ٣٩/١٦.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ١١.

(٣) سورة المدثر، الآية ٥٠.

(٤) المحرر الوجيز لابن عطية ٢١٣/٨.

(٥) سورة الإسراء، الآية ٩٤.

(٦) سورة الأنبياء، الآية ٣.

وفي هذا مفارقة بين اصطفاء الرسول من البشر، وبين اعتراضهم على اختياره من جنسهم البشري، مصداق هذا أنهم طلبوا تأييده بملكٍ من السماء، يكون معه دليلاً على رسالته، ولهذا وضح القرآن الكريم خطأ ذلك، وأنه لو تم فليس لهم حجة في الاعتراض، بل العقوبة جزاؤهم، بل لو كانت هناك استجابة لدعواهم، لوجب أن ينسلخ الملك ليكون رجلاً من جنسهم يكلمهم ويكلمونه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾. (١)

فالتسلم ببشرية الرسول يتضمن - عقلاً، ومنطقاً، وشكلاً، وموضوعاً - التسليم بأنه يموت ككل البشر، لكننا نجد - رغم ذلك - من يستبعد موت الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولهذا نجد القرآن الكريم يشير إلى ذلك الموقف بقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَئِن يَضُرُّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهَ الشَّاكِرِينَ﴾. (٢)

وهذا اعتراض على موته مع التسليم ببشريته، وفيه مفارقة صريحة.

قال أبو السعود: "وقيل هو قصر أفراد، فإنهم لما استعظموا عدم بقائه - عليه الصلاة والسلام - لهم نُزِّلُوا منزلة المستبعبدين لهلاكه، كأنهم يعتقدون فيه - عليه الصلاة والسلام - وصفين: الرسالة، والبعد عن الهلاك. فرد عليهم بأنه مقصور على الرسالة لا يتجاوزها إلى البعد عن الهلاك، فلا بد حينئذ من جعل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ كلاماً مبتدأ مسوقاً لتقرير عدم براءته - عليه الصلاة والسلام - من الهلاك، وبيان كونه أسوة لمن قبله من الرسل - عليهم السلام - وأياً ما كان فالكلام لا يخرج على خلاف مقتضى الظاهر". (٣)

(١) سورة الأنعام، الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

(٣) تفسير أبي السعود ٩٢/٢.

لقد أخبر العلي القدير الحي المميت، أن جميع البشر ميتون بما فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾. (١)

وقوله - سبحانه -: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْحَيْرِ فِتْنَةٌ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾. (٢)

ويكشف الاستخبار عن تهافت حجة المتمازين المتفهيقين، سفهًا، وجهالةً، ولجاجًا.

### التسليم ببشرية الرسول، وطلبهم أموراً فوق طاقته البشرية

إن التسليم ببشرية الرسول يتضمن ألا يطلب من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمور تتجاوز حدود البشر، ولكن هناك من طلب ذلك: إما عنادًا أو استكبارًا، وإما جهلاً، وسفهًا ولجاجًا.

وقد أوضح القرآن الكريم في آياته ما يتصف به الرسول محمد ﷺ من كونه بشرًا قد اصطفاه الله من الناس؛ ليبليغ عن الله ما أنزل إليه، وفي هذا يقول - سبحانه -: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾. (٣)

وقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ... ﴿ رِءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾. (٤)

وقال سبحانه: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾ ... ﴿ وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾. (٥)

(١) سورة الزمر، الآية ٣٠.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان ٣٤، ٣٥.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٣.

(٤) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

(٥) سورة البقرة، الآيتان ١٥١، ١٥٢.

وقال في سورة الجمعة: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾... ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (١)

ومع هذا فقد اعترض كفار مكة على هذا الاصطفاء، مبينين وجه اعتراضهم بطلبهم أمورًا خارجة عن قدرته وإرادته، بكونه بشرًا، وفي هذا التسليم والاعتراض، مفارقة بين أمرين: التسليم بكونه بشرًا، وطلبهم تحقيق ما يتعارض مع بشريته، وقد دفع القرآن الكريم هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾. (٢)

أبعد هذا دليل على مصداقية الرسالة لكل ذي عقل يعي...

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. (٣)

بيان واضح للمنهج، فالرسول - صلى الله عليه وسلم - كغيره من الرسل، بشر يوحي إليه، أرسله الله؛ لينذر قومه، ويهديهم.

وقوله - عز وجل -: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ (٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ (٢٢) ﴿إِلَّا بِلَاغٍ مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾. (٤)

وكان هذا الاعتراض من كفار مكة مبالغة منهم في العناد، والتحدي، وعدم الإذعان لقبول ما يطلبه منهم بوصفه رسولاً مبلغاً عن الله.

(١) سورة الجمعة، الآية ٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية ٥٠.

(٣) سورة الأحقاف، الآية ٩.

(٤) سورة الجن، الآيات ٢١ - ٢٣.

قال سيد قطب في معرض تفسيره لآية الأنعام: "لقد كان المعاندون من قريش يطلبون أن يأتيهم رسول الله ﷺ بآية من الخوارق يصدقونه بها - وهم كانوا يعلمون صدقه، ولا يشكُّون فيه - وتارة كانوا يطلبون أن تكون هذه الآية، تحويل الصفا والمروة ذهباً! وتارة تكون إبعادهما عن مكة؛ ليصبح مكانهما خصباً، مخضراً بالزرع والثمار، وتارة تكون إنباءهم بما سيقع لهم من أحداث مغيبة! وتارة تكون طلب إنزال ملك عليه! وتارة تكون طلب كتاب مكتوب في قرطاس يرونه يتنزل عليه من السماء... إلى آخر هذه المطالب التي يوارون وراءها تعنتهم وعنادهم! ولكن هذه المطالب كلها إنما كانوا يصوغون فكرتها من تلك الأوهام والأساطير التي أحاطت بصورة النبوة، وصورة النبي في الجاهليات من حولهم، وأقربها إليهم أوهام أهل الكتاب، وأساطيرهم حول النبوة بعد ما انحرفوا عما جاءتهم به رسالتهم من الحق الواضح في هذه الأمور...

فالرسول ﷺ يُؤمر من ربه أن يقدم لهم نفسه بشراً مجرداً من كل الأوهام، التي سادت الجاهليات عن طبيعة النبي والنبوة، وأن يقدم لهم كذلك هذه العقيدة بذاتها مجردة من كل إغراء... لا ثراء... ولا ادعاء... إنها عقيدة يحملها رسول لا يملك إلا هداية الله تنير له الطريق!. (١)

### التسليم ببشرية الرسول، والاعتراض على اختياره

إن التسليم ببشرية الرسول يتضمن الاعتراف باختياره رسولاً من جنسهم، وإن لم يكن من طبقتهم أو عشيرتهم، وفي هذا مفارقة تضمنت التناقض بين الموقفين، وهذا ما حصل من اعتراض كفار مكة؛ حسداً منهم عندما اصطفى الله الرسول محمداً ﷺ من بني هاشم، والاعتراض من يهود المدينة عندما اصطفى الله رسوله محمداً ﷺ من قريش، والقرآن الكريم يصور هذا الاعتراض، وعدم التسليم، فيما وصفه كفار مكة للنبي محمد ﷺ، بكونه مرة

(١) في ظلال القرآن لسيد قطب ٢/١٠٩٥، ١٠٩٧.

ساحراً، ومرة كاهناً، ومرة شاعراً، وقد قرعهم القرآن الكريم، مبيناً أنه رسول يوحى إليه من الله تعالى، علاوة على ذلك فاليهود كانوا يعتقدون أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي ورد ذكره في التوراة، يجب أن يكون منهم، ولما جاء ذلك مختلفاً لما اعتقدوه، عابوا ذلك، فقال القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى بِهٖ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَاتِيْسَ ثُبُودَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيْرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوْا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُوْنَ ﴾ (١).

وفي كل مفارقة بين تسليمهم ببشريته، واعتراضهم على اختياره رسولاً من غير طبقتهم، أو عشيرتهم بالنسبة لكفار مكة، أو ليس من جنسهم، بالنسبة لليهود.

وعندما يخبرنا القرآن الكريم عن حالهم، فإنه يسوق الرد في موضع التبكيك والتقريع، كما في قوله تعالى: ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيْمٍ (٣١) أَهَمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيْشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢).

فكفار مكة اعتراضوا على اختيار الله ﷺ؛ ليحمل إليهم الحق والنور، فقالوا: هلاً نزل هذا القرآن على رجل من القرينتين، - أي: من إحدى القرينتين، وهما: مكة، والطائف - عظيم - يعنون بعظمته كثرة ماله، وعظم جاهه، وعلو منزلته في قومه، وإيضاح الآية أن الكفار أنكروا أولاً أن يبعث الله رسولاً من البشر، ثم لما سمعوا الأدلة على أن الله لم يبعث إلى البشر رسولاً إلا من البشر تنازلوا عن افتراضهم إرسال رسول من الملائكة إلى اقتراح آخر، وهو اقتراح تنزيل هذا القرآن على أحد الرجلين:

(١) سورة الأنعام، الآية ٩١.

(٢) سورة الزخرف، الآيات ٢٩ - ٣٢.

عظيم مكة الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة، وعظيم الطائف: عروة بن مسعود،  
وقيل: حبيب بن عمرو، وقيل: كنانة بن عبد ياليل، وقيل غير ذلك، وهذا الاقتراح يدل على  
شدة جهلهم، وسخافة عقولهم؛ حيث يجعلون كثرة المال، والجاه في الدنيا، موجباً لاستحقاق  
النبوة، وتنزيل الوحي.

لذا زعموا أن محمداً ﷺ، ليس أهلاً لإنزال هذا القرآن عليه؛ لقله ماله، وأن أحد  
الرجلين المذكورين أحق أن ينزل عليه القرآن منه ﷺ، وقد بين - تعالى - في هذا الآية  
الكريمة، شدة جهلهم، وسخافة عقولهم، بقوله: ﴿أَهُمْ يَفْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾ والظاهر  
المتبادر أن المراد برحمة ربك: النبوة، وإنزال الوحي. (١)

فردّ عليهم مستنكراً هذا الاعتراض على رحمة الله، التي يختار لها من عباده من يشاء،  
وعلى خلطهم بين قيم الأرض، وقيم السماء، مبيئاً لهم عن حقيقة القيم التي يعتزون بها،  
ووزنها الصحيح في ميزان الله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾. (٢)

فلقد اختار لها من يعلم أنه لها أهل، ولعله - سبحانه - لم يشأ أن يجعل لهذه الرسالة  
سنداً من خارج طبيعتها، ولا قوة من خارج حقيقتها، فاختار رجالاً ميزته الكبرى: الخلق،  
وهو من طبيعة هذه الدعوة، وسمته البارزة: التجرد، وهو من حقيقة هذه الدعوة، ولم يختاره  
زعيم قبيلة، ولا رئيس عشيرة، ولا صاحب جاه، ولا صاحب ثراء؛ كي لا تلتبس قيمة واحدة  
من قيم هذه الأرض، بهذه الدعوة النازلة من السماء. (٣)

وقد أنكر عليهم القرآن هذا الطلب في غير ما موضع منه، من ذلك قوله تعالى في  
سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٢٤١/٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية ١٢٤.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣١٨٦/٥.





قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمَشُّونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢﴾.

وفي هذا يبين القرآن أن هؤلاء الرسل هم من جنسهم، يأكلون مما يأكلون، لا اختلاف بينهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِهْمُ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ ﴿٣﴾.

وهكذا نرى المفارقات المتتابعة في موقف هؤلاء المعاندين المتكبرين الجاهلين، موقف يفتقد المصادقية، وينطلق من السفه، والجهل، واللجاجة، فالحجة واهية في مقابل حجة العلي القدير، تلك الحجة الناصعة الساطعة، ولما كان من البدهي أن يقبل الناس ما يقبله كل ذي عقل صحيح، وطبع سليم، فإن عدم قبول هؤلاء الناس يكشف عن مفارقة وتناقض، بين ما يجب أن يكون من تسليم وتصديق، وما هو كائن من جدل عظيم، وحجة متهافئة، ورفض لما يجب قبوله.

---

(١) سورة إبراهيم، الآيات ٨ - ١١ .

(٢) سورة الإسراء، الآيات ٩٤ - ٩٦ .

(٣) سورة الفرقان، الآية ٢٠ .

## المبحث الثاني

### موقف اليهود من الرسالة والرسول

جاء القرآن مصدقاً لما مع اليهود، وكان من المعقول والمنظور أن يؤمنوا بهذا الكتاب - القرآن الكريم - لكنهم لما جاءهم ما عرفوا من الكتاب والنبوة كفروا به، وقد جاء قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (١).

دليلاً واضحاً على كفرهم، ومعاندتهم لله وللنبي محمد ﷺ أن يؤمنوا به رسولاً، وبالقرآن كتاباً منزلاً من عند رب العالمين. وموقف اليهود من الإسلام يكشف عن مفارقة؛ حيث يتناقض موقفهم مع ما علموا من حقيقة بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصفاته، وقد اقترنت المفارقة بالكفر بغيّاً، لذا كانت نتيجة ذلك أنهم باءوا بغضب على غضب من الله.

ولكي نجلي الغموض نستعرض موقفهم من النبوة والرسالة والكتاب عبر الآيات القرآنية التالية التي كشفت عن مواقفهم.

لقد كان أصحاب محمد ﷺ يطمعون في إيمان اليهود أكثر مما يطمعون في إسلام المشركين؛ وذلك لما عندهم من أصل التوحيد، ولما ورثوه من الكتاب الذي فيه ذكر نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - وأوصافه، الذي جاءهم بكتاب مصدق لما معهم في الجملة، وفيه تجلية للشبهات، وحلول للمشكلات، وفيه إباحة لبعض ما حُرّم عليهم من الطيبات، فكان من المعقول والواجب أن يؤمن اليهود، ولكن الله العليم بالسرائر يعلم أنه لا وجه لهذا، وليس فيه جدوى؛ لأنهم انحرفوا بحقيقة الدين، الذي هو رابطة روحية قوية بين الأمم، وهداية للقلوب الفطرية، فجعلوه رابطة جنسية عصبية، يريدون به الانفصال عن

غيرهم والاستعلاء عليهم، ويتصرفون بالنصوص على حسب أهوائهم، ومصالحهم الشخصية، ويريدون أن يجعلوا من دينهم أداة تسلط على الأمم والشعوب في النواحي السياسية والاقتصادية بضروب من الافتراء على الله، (١) ولهذا يقول الله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. (٢)

أي: أفتطمعون أيها المؤمنون بما جاء به محمد ﷺ (أن يؤمنوا لكم) أي: يؤمن بنو إسرائيل لكم بعد ما علمتم من تفاصيل أحوال أسلافهم المؤيسة عنهم، وهم متمثلون في طبائعهم الذميمة، وأخلاقهم الفاسدة، وقلوبهم القاسية، لا يصدر منهم إلا مثل ما صدر من أسلافهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. (٣)

سماغًا واضحًا ليس فيه التباس ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يحرفونه من بعد ما ضبطوه ولم تشبهه عليهم صحته، بل تحريفهم لكلام الله عن عمد وسوء قصد مما لا يصح أن يكون لهم فيه عذر من سوء الفهم ونحوه، ولذا قال: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلمون المعنى المقصود تمامًا، بلا إشكال، ولا نسيان، ولا ذهول، وإنما لمقاصد نفسية، وأغراض مادية نفعية، وهذا لا يُرجى معه إيمان، وهو إخبار من الله عن إقدامهم على البهت، ومناصبتهم العداوة للأنبياء، وأن بقاياهم في العصر المحمدي لا يزالون على مثل ما كان عليه أسلافهم. (٤) وهذه مفارقة من بعثة النبي محمد ﷺ، ومن القرآن الكريم، وفي الآية التالية خير دليل على موقفهم من كتاب الله، مع وجود المفارقة في موقفهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ

(١) صفوة الآثار والمفاهيم في تفسير القرآن العظيم، لعبد الرحمن الدوسري ١٨٩/٢.

(٢) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية ٧٥.

(٤) صفوة الآثار والمفاهيم، المرجع السابق.

كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿١﴾.

فالقرآن الكريم أخذ يزيد من تعنيفهم، ويجاههم بصواعق وحيه مجابهة شديدة على ما قالوه، وما فعلوه، ويظهر تهافت شبهاتهم التي يحتجون بها، ويجردهم من كل معذرة؛ كي لا يبقى لهم ستر، موضحًا - سبحانه وتعالى - قبح كفرهم، وأسبابه الخبيثة، وأنهم كفروا بالنبي الذي كانوا يرتقبونه، ويستفتحون به على مشركي العرب، ومع هذا لما جاءهم هذا النبي الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم مما ذكر الله من أوصافه في التوراة، ويستنصرون به على أعدائهم، كفروا به بعد مجيئه، وناصبوه العداوة، فكفرهم في غاية القبح والحقاقة، بل هو من أشد أنواع الكفر؛ لأنه ليس ناشئًا عن جهل أو تقليد للآباء أو تأثرًا بالبيئة، وإنما هو ناشئ عن سوء سريرة، وخبث طوية؛ لأنهم كفروا بما جاء مصدقًا لما معهم، ولأنه معروف لديهم غاية العرفان، (٢) ولهذا كشف الله عن طويتهم، فقال سبحانه: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٣﴾.

فموقفهم موقف المضادة لله، إنهم يطالبون الله أن يكون هذا النبي منهم ليس من العرب، وإنهم ناقدون من الله أن يختار لرسالته من يريده، دون من يريدون، إن خطتهم خطيرة، وكفرهم من أشد أنواع الكفر وأقبحه، إن موقفهم شنيع، يستحق الغضب واللعنة، إنه تطاول على الله، واستدراك عليه - سبحانه - وانتقاد لمشيئته، وطعن في حكمته، وحسد لمن اصطفاه من عباده، وقال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ

(١) سورة البقرة، الآية ٨٩.

(٢) صفوة الآثار والمفاهيم، المرجع السابق.

(٣) سورة البقرة، الآية ٩٠.

إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ  
وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١﴾.

فهذه الآية توضح العلة الأصيلة لدى اليهود والنصارى الذين صبغوا عقيدتهم بالعصبية،  
ويريدون فرضها، فلا يرضون من النبي ﷺ، ولا من أتباعه إلا أن يتبعوا أهواءهم، مكابرة،  
وعنادًا منهم، وهذه مفارقة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ  
لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

فقد ذكر الله تعالى أن أهل الكتاب يعلمون الحق في أمر القبلة، وأن محمدًا ﷺ صادق  
فيما أخبر عن تحويلها، لكنهم يجحدون، ويمكرون لاستعدادهم الباطل، وتفضيله على الحق،  
حسدًا وبغيًا، ثم إنه - سبحانه - في هذه الآية أخبرنا عن الأصل، وعن العلة في ذلك العلم،  
وذلك الإنكار، وهو أنه قد تقرر عندهم، وعرفوا الحق من صدق رسالة محمد - صلى الله  
عليه وسلم - وصدق ما جاء به معرفة يقينية، وذلك مما وجدوه في كتبهم من البشارة به  
وأوصافه، وأنه من بني إسماعيل من العرب، وليس منهم، وأن قبلته الكعبة فهم يعرفونه تمامًا،  
بالنعوت، والأوصاف التي في التوراة، وبما شاهدوه من ظهور آياته وآثار هدايته، فمعرفتهم  
وصلت إلى مستوى معرفة آبائهم الذين تولوا تربيتهم، ولكن فريقًا منهم يجحدون الحق  
وينكرونه - حسدًا منهم - وهم يعلمون علم اليقين حقيقة ذلك، (٣) وهذه مفارقة منهم في  
العلم والإنكار.

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٠.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٤٦.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم للدوسري ٤٠٦/٢.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَهُدًى مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾. (١)

فكتمان اليهود لما أنزل الله في كتبهم كان لمقاصد خاصة وأغراض نفسية، مثل: كتمانهم البشارة بمحمد ﷺ بعد أن كانوا يخبرون بها لحاجة الاستنصار على المشركين، ثم إنهم كتموا هذه الحقيقة بعد مجيئه وحرفوها زاعمين أن الذي في التوراة على غير هذا الوصف، وكتمانهم لحد الزنا وغيره، ففضحهم الله في آيات عديدة بعد أن كانوا على علم بهذه الأمور في الحقيقة والواقع، ولكن كان هذا منهم معاندة ومكابرة، وهذه مفارقة بين علمهم وكتمانهم هذا العلم، فمن المفروض أن يتفق العمل مع العلم، وأن يكون موقفهم قائمًا على ما يعلمون أنه الحق، أما أن يكونوا علمين بحقيقة الرسالة، ويكتمون ما يعلمون، ويقفون موقفًا مضافًا لهذا العلم، فإن ذلك يتضمن مفارقة حيث افترق ما يجب أن يجتمع.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾. (٢)

تحذير من الله لليهود من أن يلبسوا - أي: يخلطوا - الحق بالباطل حتى يشتهبه على عوام الناس، وقد كان من تلبس أحبار اليهود أنهم يلبسون الأمر على العامة في شأن محمد ﷺ بأنه من الكذابين استنادًا لما جاء في التوراة من نبوغ أنبياء كذابين، ومن بعث رسول من بني إسماعيل موصوف بأوصافه الحسية الصحيحة التي يعرفونها، فهم يكتمون ما في التوراة من الحق الذي هو الإخبار ببعثة النبي محمد ﷺ، ويزعمون أنه من الكذابين الذين جرى التحذير عنهم في التوراة، وهذا من أشنع أنواع الخلط والتلبس. (٣)

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٩.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٢.

(٣) صفوة الآثار والمفاهيم، للدوسري ١٠٨/٢.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُنُومُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (١)

ردَّ الله اعتذار اليهود، وأبطله في مواضع سابقة، حيث زعموا أن قلوبهم غلف لا تفهم الدعوة ولا تعقل الخطاب، ففضح اعتذارهم ببيان السبب الحقيقي الذي استحقوا به اللعنة الحارمة لهم من الهداية، والغضب والعذاب المهين على ما يحملونه من لؤم الحسد والحقد... وقد ذكر لهم اعتذارًا آخر في هذه الآية متصديًا له بالرد والإبطال، وذلك أنه لما دعاهم إلى الإيمان بنبوّة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبالكتاب الذي أنزله عليه تشبثوا بشبهة داحضة، وهي زعمهم أنهم لا يؤمنون إلا بما أنزل عليهم... لذا فقد ضربهم الله بضربتين قاصمتين:

**أحدهما:** أنهم كفروا بالحق، الذي جاء مصدقًا لما معهم، والواجب يقضي عليهم المبادرة إلى الإيمان به، والاعتزاز به، والتشرف بالمسارعة إليه.

**ثانيهما:** فضح الله لهم بسؤالهم عن قتل أنبيائه؛ لأن هذا من أكبر الدلائل على كفرهم، وعدم صدقهم في دعوى الإيمان، فالله - سبحانه - أمر نبيه محمدًا - عليه الصلاة والسلام - بالتساؤل معهم فيه هذه الآية، فلو أن عندكم شيئًا من الإيمان بما أنزل عليكم لما قتلتم الأنبياء، وهم قد جاءوكم بما تزعمون أنكم مؤمنون به، وجاءوكم بتأييده، والتصديق به، (٢) فهذا التلقين من الله لنبيه محمد ﷺ بالتساؤل معهم عن قتلهم أنبياءهم لتكذيب دعواهم وفضح مخازيهم، وهذه مفارقة واضحة تنم عن كذب اليهود بما يزعمون من عدم إيمانهم بالنبي محمد ﷺ، وبما أنزل عليه بدعوى ما مضى من كيدهم، والله أعلم.

(١) سورة البقرة، الآية ٩١.

(٢) صفوة الآثار، المرجع السابق.



## المبحث الثالث

### ادعاء اليهود طاعة أنبيائهم واعتدائهم عليهم

تتجلى المفارقة في أن مسلك اليهود من أنبياء الله يتناقض مع اتخاذهم لهم أنبياء، ومع انتسابهم لهؤلاء الأنبياء.

وقد عرض القرآن الكريم قضية الطاعة مؤكِّدًا أهميتها في تحقيق الامتثال، وما يستتبع ذلك في تحقيق الأمن والاستقرار للمجتمع بعامه، وللإنسان بخاصة، وأثر ذلك في نيل رضى الله، ورحمته، ودخول الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين، مصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ (١).

يتحقق بطاعة الله ورسوله، وفي هذا يقول الله - سبحانه وتعالى - مبيِّنًا عظم المحبة وقيمتها، وأنها لا تكون إلا بطاعته، وطاعة رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٢).

قال سيد قطب في معرض تفسيره لهاتين الآيتين: (إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيأماً بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة. وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة الله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول). (٣)

(١) سورة النساء، الآيتان ٦٩ - ٧٠.

(٢) سورة آل عمران، الآيتان ٣١، ٣٢.

(٣) في ظلال القرآن لسيد قطب ٣٨٧/١.

وقال ابن كثير: (مفسراً قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: تخالفوا عن أمره، وكذلك: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾. فدلَّ على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله<sup>(١)</sup>.

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها، حقيقة الطاعة لشريعة الله، والاتباع لرسول الله، والتحاكم إلى كتاب الله، وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تُعبدَ الناس لها، وتُطوَّعَهم لأمرها، وتنفذ فيهم شرعها، وتضع لهم القيم والموازن التي يتحاكمون إليها، ويرتضون حكمها، ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية لله وحده في حياة البشر، وارتباطاتها جميعاً، كما أن الحاكمية لله وحده في تدبير أمر الكون كله، وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير.<sup>(٢)</sup>

وفي سياق الطاعة، والأمر بها، أمر الله تعالى عباده بطاعته وطاعة رسوله وأولي الأمر منهم، وذيل الآية بالتحريض، والتحذير معاً؛ لأن الإيمان بالله، واليوم الآخر، وازعان يزعان عن مخالفة الشرع والتعريض بمصالح الأمة للتلاشي، وعن الأخذ بالحظوظ العاجلة مع العلم بأنها لا ترضي الله بل تضر الأمة، فلا جرم أن يكون دأب المسلم الصادق الإقدام عند اتضاح المصالح، والتأمل عند التباس الأمر، والصدر بعد عرض المشكلات على أصول الشريعة، وفي هذا مفارقة بين الامتثال لطاعة الله ورسوله وجزاء ذلك، وبين مخالفة ذلك وعاقبته.

والشواهد على ذلك، والتي تأمر بطاعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كثيرة في القرآن، حيث تنبثق من طاعة الله تعالى، وفي هذا يقول تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.<sup>(٣)</sup>

(١) تفسير ابن كثير ١/٣٧٣.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب ١/٣٨٧.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

قال الألوسي: "بيان لأحكام رسالته ﷺ إثر بيان تحققها، وإنما كان كذلك؛ لأن الأمر والنهي في الحقيقة هو الحق - سبحانه - والرسول - صلى الله عليه وسلم - إنما هو مبلغ الأمر والنهي، فليست الطاعة له بالذات، إنما هي لمن بلغ عنه". (١)

ثم يعقب بعدها بمفارقة صريحة إذ يقول - سبحانه - ﴿ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾. (٢)

أي: ومن تولى، أو أعرض، واستمر على المكابرة: ﴿ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾. (٣)  
أي: حارساً لهم، ومسؤولاً عن إعراضهم، وهذا تعريض بهم وتهديد لهم بأن صرفه عن الاشتغال بهم، فيعلم أن الله سيتولى عقابهم.

وفي معرض بيان الطاعة جاءت الآية القرآنية من سورة التغابن في قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾. (٤)

تأمر العباد عامة بطاعة الله ورسوله؛ لأن كمال الإنسان وسعادته مرتبطة بهذه الطاعة التي هي عبارة عن تطبيق نظام دقيق ينتج صفاء روح، وزكاة نفس يتأهل بها العبد إلى النزول بالملكوت الأعلى. وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي: أعرضتم عن هذه الدعوة، فرفضتم طاعة الله ورسوله، فلا ضرر على رسولنا، ولا ضرر؛ إذ عليه البلاغ المبين، وقد بلغ مبيناً غاية التبيين، وأما هدايتكم، فلم يكلف بها؛ إذ لا يقدر عليها، ولا يكلف الله نفساً إلا طاقتها.

---

(١) روح المعاني للألوسي ٩١/٥.

(٢) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٣) سورة النساء، الآية ٨٠.

(٤) سورة التغابن، الآية ١٢.

## المبحث الرابع

### موقف بعض الأمم من أنبيائهم

وتحت هذا المبحث مطالب:

#### المطلب الأول: قصة هود عليه السلام مع قومه:

أخبر الله تعالى عبده ورسوله هودًا - عليه السلام - أنه دعا قومه عادًا، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريبًا من حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح - عليه السلام - ، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى - : ﴿ كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمُ أَحُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. (١)

فأجابه قومه بعدما حذرهم، وأنذرهم، ورجبهم، ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه: ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين (١٣٦) إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧) وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ ﴾. (٢)

فهذا إنكار منهم، ومكابرة، وعناد فما يعيننا أن تعظ، أو لا تكون أصلاً من الواعظين، وهو تعبير فيه استهانة، واستهتار، وجفوة يتبعه ما يشي بالجمود، والتحجر، والاعتماد على التقليد، وفي هذا مفارقة بين إنعام الله عليهم بالخيرات، وبين إنكارهم ما يدعوهم إليه نبي الله

(١) سورة الشعراء، الآيات ١٢٣ - ١٣٥.

(٢) سورة الشعراء، الآيات ١٣٦ - ١٣٨.

هود - عليه السلام - لهذا ختمت بمعاقبتهم: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٣٩) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١﴾.

### المطلب الثاني: قصة أصحاب الحجر وهلاكهم:

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٨٠) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٢﴾.

أصحاب الحجر هم ثمود، الذين كذبوا صالحًا نبيهم - عليه السلام - ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين، وذكر - تعالى - أنه أتاهم من الآيات ما يدهم على صدق ما جاءهم به صالح - عليه السلام -، فالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح - عليه السلام - من صخرة صماء، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب يوم، ولهم شرب يوم معلوم، فلما عتوا وعقروها أخذهم الله بالصيحة مصبحين، فما أغنى عنهم ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة التي عقروها لثلا تضيق عليهم في المياه، فما دفعت عنهم تلك الأموال، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك، وفي هذا مفارقة بين عصيانهم أمر الله، وبين ما صنعوه من نحتهم الجبال، وجعلها بيوتًا فارهة، وما جمعوه من الزروع والثمار، فقد عمَّهم الله بعقابه على ذلك العصيان. (٣)

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان ١٣٩، ١٤٠، هذه القصة وردت في كتاب الله في عدة مواضع، تأمل ذلك في سورة الأعراف، الآيات ٦٥ - ٧٢، وسورة هود، الآيتان ٥٣، ٥٤، وسورة الأحقاف، الآيات ٢١ - ٢٦، وسورة الحاقة، الآيات ٨ - ٤.

(٢) سورة الحجر، الآيات ٨٠ - ٨٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٦٠٢/٢.

### المطلب الثالث: قصة إبراهيم - عليه السلام - مع قومه:

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿١﴾.

قال الزمخشري: (وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليهم السلام - كلامه مع المشركين حين سألمهم أولاً عما يعبدون، سؤال مقرّر لا مستفهم، ثم أنحى على آلهتهم، فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة، فضلاً أن يكون حجة...)<sup>(٢)</sup> وفي هذا مفارقة بين عبادتهم من دون الله، واتخاذهم الأصنام، وبيّن ما هو مطلوب منهم فعله.

### المطلب الرابع: موقف القرآن من مراودة قوط لوط، للوط في أضيافه وتبريره لهم

قال تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠) قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٣﴾.

يخبر - تعالى - عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه، وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم، فرحين بالأضياف؛ طمعاً منهم بالفاحشة، فاعتذر لهم أن هؤلاء أضياف عليه، وقال لهم ذلك قبل أن يعلم أنهم رسل الله، وذلك لعلمه بعدم رغبة قومه بالبنات، وإنما بفعل الفاحشة في الذكور من الرجال.<sup>(٤)</sup>

(١) سورة الشعراء، الآيات ٦٩ - ٧٧.

(٢) الكشاف، للزمخشري ١١٨/٣.

(٣) سورة الحجر، الآيات ٦٦ - ٧١.

(٤) تفسير ابن كثير ٦٠٠/٢.

وفي هذا مفارقة بين رغبتهم بفعل الفاحشة، وبين عزوفهم عن إتيان البنات، وعن البعد عن الفاحشة، فإن فعل الفاحشة مفارقة للعقل والنقل، والفطرة السوية، كما أن فعلها مع الذكور شذوذ في العقل والسلوك، ومفارقة للطبيعة البشرية، ولم تأمر به الديانات السماوية.

## الخاتمة

بعد استعراض ما تقدم ذكره، يتضح أن القرآن الكريم قد أخبر عن كثير من القضايا التي تتصل بمواقف الأمم السابقة من الرسل والرسالات عن طريق القصص، وضرب الأمثال، والتذكير والموعظة، وبخاصة في مجال العقيدة، داعياً الإنسان أن ينظر في نفسه، وفيما حوله من آيات كونية، ومن حقيقة وجوده؛ ليعلم أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً وأن شيئاً لم يوجد من نفسه، بل لا بد له من موجد هو الخالق الصانع - سبحانه وتعالى - ومن خلال تأمل الآيات التي عرضناها وصلت إلى نتيجة؛ أن القرآن يكشف عن التناقض في سلوك كثير من الناس بين ما هو ظاهر وما هو باطن، وبين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل.

فالأدلة على وجود موجد الكون وخالقه لا تقودهم إلى الإيمان بالله الخالق الواحد، الفرد الصمد الحكيم، وهذا تناقض في السلوك، ويتضمن التناقض مفارقة حيث افترق طرفان يجب أن يلتقيا.

والإيمان ببشرية الرسول ﷺ لا تقودهم إلى أن الرسول محدود بمحدود البشر، وأنه يموت، وأنه لا يفعل إلا ما أمره الله به، وما وسعه هو أن يفعله، وأن الإيمان ببشريته لا يتعارض مع اختياره رسولاً من رب العالمين، ولعل القرآن قد سجل على الكفار اقتراحهم في الاختيار، وإرادتهم أن تكون الخيرة لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفرده هو بالاختيار.

والمنطق يرينا أن واهب النعم لا بد أن يكون أحب إلينا من النعم نفسها، لكن كثيراً من الناس تشغلهم هذه النعم عن واهبها وخالقها.

وهكذا تتجلى المفارقة في التناقض بين ما يجب أن يكون، وما هو كائن بالفعل، وبالتالي نكون قد أثبتنا أن القرآن الكريم قد عالج النفس البشرية في مواقفها من نفسها، ومجتمعها، وعالمها، ومن الرسل، ومن دعوة الحق والإيمان، هذه المواقف التي تكشف حقيقة الإنسان، فالمؤمن وقَّاف متأنٍ، وليس كحاطب ليل يجمع الدقيق والجزل، وإذا كان موقف



المؤمنين يتسم بالتوافق مع فطرتهم أو فطرة الله التي فطرهم عليهم، ومن ثم كانت استجابتهم  
أمرًا طبيعيًا، فضلاً عن أنها تتسم بالمصادقية والعقلانية، وطاعة للخالق العظيم.

أما هؤلاء الذين كابروا وجادلوا على غير حق، وادعوا وتماروا، وكذبوا وتولوا معرضين عن  
النور الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فإن موقفهم يتناقض مع  
فطرتهم التي فطرهم الله عليها، لقد عموا وطمسوا، وعميت قلوبهم وعقولهم، كما أن هذا الموقف  
يتناقض مع المعقول، ومع ما يجب أن يكون، ناهيك عن تناقضه مع أمر الله ورسوله، والعلم  
الذي ورثوه فحرفوه، وكنتموه، وبدلوا فيه تبعًا لأهوائهم.

هذا التناقض يمثل مفارقة، حيث إن ما يجب أن يلتقي مع غيره، ويتوافق معه، ويكون  
نتيجة منطقية له، جاء مفارقاً له، متعاكساً معه، ومن ثم كانت المفارقة.

ولا شك أننا كنا محدودين بحجم البحث، ومن ثم لم نستطد ونتوسع، ونطّل التحليل،  
فجاء بحثنا متضمنًا الأهم والألزم من الشواهد القرآنية والتفسير، والتحليل والتعليق.  
والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

## ثبت المصادر والمراجع

- الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥١ م.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية بالقاهرة ١٤١٥ هـ.
- تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، دراسة وتحقيق: علي شيري، دار الفكر ١٤١٤ هـ، بيروت.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس.
- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، علق حواشيه، وقدم له: عبد الوهاب عبد اللطيف، وصححه، وأشرف على طبعه: محمد الصديق، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة.
- التفسير الكبير، للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، حققه، وضبطه، ونسقه، وصححه: محمد زهري النجار، نشر إدارات البحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة، والإرشاد، الرياض ١٤٠٤ هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨ هـ.
- دراسات في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لزهري بن عواض الألمي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.
- روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار الدعوة، تركيا ١٤٠١ هـ.

- شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز، حققها وراجعها: جماعة من العلماء، خرج أحاديثها: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ. المكتب الإسلامي، بيروت.
- الصاحبي في فقه اللغة، لأحمد بن فارس، الأولى ١٤١٤هـ، مكتبة المعارف، بيروت ١٩٩٣م.
- صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، دار الدعوة، تركيا ١٤٠١هـ.
- صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم، لعبد الرحمن بن محمد الدوسري، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، مكتبة دار الأرقم، الكويت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، نشره محفوظ العلي، بيروت.
- في ظلال القرآن، لسيد قطب، الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ، دار الشروق، بيروت.
- في الفكر الإسلامي، صنفه عوض الله حجازي، وآخرون، مطبوعات جامعة الإمارات العربية المتحدة، العين ١٤١٠هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل، في وجود التأويل، للزمخشري، دار المعرفة، بيروت.
- لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن، الطبعة الثانية، مطبعة مصطفى البابي، وأولاده، مصر.
- لسان العرب، لابن منظور، تصوير دار صادر، بيروت.
- المال في القرآن الكريم، دراسة موضوعية، لسليمان الحصين، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار المعراج الدولية للنشر، الرياض.
- مباحث في القرآن، للقاصبي محمود زلط، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ. دار القلم، دبي، دولة الإمارات العربية المتحدة.

- مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية، والإفتاء، والدعوة، والإرشاد، الرياض العدد ٣٦ سنة ١٤١٣هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية، تحقيق: الرحالي الفاروق، وآخرين، الطبعة الأولى، مؤسسة دار العلوم، الدوحة، قطر ١٣٩٨هـ.
- المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي، عناية: يوسف الشيخ محمد، الأولى ١٤١٧هـ، المكتبة العصرية، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، دار المعارف، بيروت.